رابعاً: موالاة [١] كثير من ملوك الطوائف للنصارى، وإذعانهم لتبعيتهم:

يقول ابن خلدون: «إن المغلوب مولع أبداً بالاقتداء بالغالب في شعاره وزيه وتخلقه وسائر أحواله وعوائده، والسبب في ذلك أن النفس أبداً تعتقد الكمال فيمن غلبها وانقادت إليه، . . . حتىٰ إنه إذا كانت تجاور أخرىٰ ولها الغلب عليها، فيسري إليهم من هذا التشبيه والاقتداء حظ كبير كما هو في الأندلس لهذا العهد مع أمم الجلالقة؛ فإنك تجدهم يتشبهون في ملابسهم، وشاراتهم، والكثير من عوائدهم وأحوالهم»[٢].

هكذا يرىٰ ابن خلدون أن الأمم والشعوب الضعيفة تسير في فلك من هو أقوىٰ منها، ويدرك المتتبع لتاريخ مسلمي الأندلس في عصر ملوك الطوائف، أن أولئك القوم قد تمادوا في هذا الميدان، فقد تجاوزوا ما ذكره ابن خلدون في النص السابق؛ حيث وصلوا إلىٰ مرحلة التبعية السياسية، وما يتمخض عنها من تبعات أخرىٰ، وهي ما يسميها ابن خلدون بالاستيلاء[٣].

أما ابن عبد البر فقد ذكر أنهم صاروا خولاً للنصارىٰ[٤]، كما ذكر ابن حيان أن ملوك الطوائف قد تمادوا في هذا الأمر؛ حيث جعلوا أيديهم في أيدي

---

(١) ليس المقصود بالموالاة هنا عقد الهدنة، أو الصلح مع النصارىٰ؛ لأن الفقهاء نصوا علىٰ جواز أن يعقد المسلمون هدنة مع الكفار علىٰ مالٍ يدفعه المسلمون لهم، إذا كان ذلك لضرورة كبيرة، مع اختلاف بينهم في درجة تقدير الضرورة، فبينما يرىٰ ابن رشد أن ذلك جائز علىٰ مالٍ بمجرد كون المسلمين لا طاقة لهم بدفع أعدائهم. (بداية المجتهد، ج ١، ص ٢٨٣)؛ فإن ابن قدامة وغيره من الفقهاء يقيدون هذا الجواز حينما يخشىٰ المسلمون الهلاك عن بكرة أبيهم. (المغني، لابن قدامة، ج ١، ص ٥١١، شرح فتح القدير، لابن الهمام، ج ٥، ص ٤٤٥).

(٢) العبر، ص ٢٥٨ ـ ٢٥٩.

(٣) المصدر السابق، ج ١، ص ٢٥٩.

(٤) القصد والأمم، ص ٣٥.

النصارىٰ[١]؛ ومما لا شك فيه أن هذا التوجه يعدُّ من أخطر الآفات التي تصيب الأمم والشعوب؛ حيث أثر تأثيراً قوياً علىٰ واقع مسلمي الأندلس آنذاك، فبينما كان النصارىٰ في عصر الدولة الأموية يسعون لخطب ود المسلمين، وكسب رضاهم، نجد أن الواقع قد انعكس حيث أصبح معظم ملوك الطوائف يلهثون وراء النصارىٰ لكسب ودّهم، ومن أجل الحظوة برضاهم ولو أدىٰ ذلك إلىٰ الخضوع لسيطرتهم والإذعان لأمرهم، وهكذا تمادوا في هذا الميدان حتىٰ أصبح أولئك الزعماء تابعين للنصارىٰ في كثير من أمورهم، يؤدون إليهم من الأموال أضعاف ما ينفقونه علىٰ رعاياهم من المسلمين[٢]، كما أن النصارىٰ أصبحوا يعدُّون تلك الأموال حقاً شرعياً لهم لا يجوز للمسلمين تأخيرها، أو التهاون في أدائها، ومن يفعل ذلك فإنه يعرض نفسه وملكه للخطر؛ حيث يقوم النصارىٰ بمعاقبته علىٰ إخلاله بالواجب في الحال[٣]، فحينما رفض محمد بن مسلمة بن الأفطس (٤٣٧ ـ ٤٦١ هـ) دفع الإتاوة لفرديناند الملك القشتالي أرسل إليه جيشاً قوياً قوامه ثلاثون ألف رجل منهم عشرة آلاف فارس، وقد توجه ذلك الجيش إلىٰ شنترين التي تعد من أهم مدن الثغر الأدنىٰ، وبالرغم من محاولة ابن الأفطس التصدي لذلك الجيش ومقاومته فإنه اضطر إلىٰ أن يعقد صلحاً مع العدو علىٰ أن يدفع المظفر فدية مقدارها خمسة آلاف دينار كل عام[٤]، وقد علق ابن عذارىٰ علىٰ هذا الأمر بقوله: «ولم يزل عدو الله فرديناند يقوىٰ، والمسلمون يضعفون بغرم الجزية للنصارىٰ، إلىٰ أن نزل اللعين علىٰ مدينة قلمرية»[٥].

---

(١) المقري، نفح الطيب، ج٣، ص ٤٥٣.

(٢) ابن عبد البر، القصد والأمم، ص ٣٦.

(٣) ابن عذارىٰ، البيان المغرب، ج٣، ص ٢١١ـ٢٣٨.

(٤) المصدر السابق، ج٣، ص ٢٣٨، محمد عبد الله عنان، دول الطوائف، ص ٨٦.

(٥) ابن عذارىٰ، البيان المغرب، ج٣، ص ٢٣٨.

وحينما تمكن ألفونسو السادس ملك قشتالة من دخول مدينة طليطلة سنة ٤٧٨ هـ ـ حينما خذلها المسلمون، ولا سيما عمر المتوكل بن الأفطس (٤٦٤ ـ ٤٨٤ هـ) ـ أرسل الملك النصراني إلىٰ ابن الأفطس يطلب منه تسليم بعض قلاعه وحصونه، ويتوعده بسوء العاقبة إن هو تباطأ في ذلك[١].

وبالرغم مما أظهره المتوكل ابن الأفطس من شجاعة حينما هدده الملك النصراني حيث رفض الخضوع له في بادئ الأمر، ويبدو هذا واضحاً من رسالته التي أرسلها إلىٰ أمير المرابطين يوسف بن تاشفين[٢]، فإنه ما لبث أن انتابه الضعف فآب إلىٰ منهجه السابق في موالاة النصارىٰ ودعوتهم؛ وخصوصاً حينما رأىٰ ما حلّ بزميله عبد الله بن بلقين سنة ٤٨٣ هـ علىٰ يد المرابطين؛ إذ راسل الملك القشتالي، ثم سلَّم له مدينة شنترين علىٰ أن يدفع عنه الخطر المرابطي، لكن رعيته لم يرضها هذا التصرف منه فراسلوا المرابطين يطلبون منهم سرعة الحضور كيلا يقتحم النصارىٰ بطليوس نفسها[٣]، فلما جاء المرابطون قبضوا علىٰ المتوكل وابنيه الفضل والعباس وقتلوهم[٤].

(١) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص ١٨٠، محمد عبد الله عنان، دول الطوائف، ص ٩٠، Altamera: Hestoria de Espania 30 Ed. T.I. Madrid 1913. pp.261.

(٢) ومما جاء في تلك الرسالة: «ولم يزل دأبها التشطط والعناد، ودأبنا الإذعان والانقياد حتىٰ نفد الطارف والتلاد، وأتىٰ علىٰ الظاهر والباطن النفاد، وأيقنوا الآن بضعف المنن، وقويت أطماعهم في افتتاح المدن». (محمد عبد الله عنان، دول الطوائف، ص ٩٢ ـ ٩٣).

(٣) ابن بلقين، مذكرات الأمير عبد الله، ص ١٧٢، ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ج ٢، ص ١٨٥ ـ ١٨٦، محمد عبد الله عنان، دول الطوائف، ص ٣٦٨ ـ ٣٦٩.

(٤) ابن بلقين، مذكرات الأمير عبد الله، ص ١٠٨، المراكشي، المعجب، ص ١١٢، محمد عبد الله عنان، دول الطوائف، ص ٣٦٨ ـ ٣٦٩، وقد ذكر ابن بلقين أن المتوكل قد احتاط قبل قتله حيث أرسل ابنه المنصور بأمواله إلىٰ حصن شانجش القريب من قشتالة فتحصن به المنصور، فلما رأىٰ ما حل بأبيه وأهله علىٰ أيدي المرابطين توجه إلىٰ ألفونش حيث سلم له الحصن، كما أقام في قشتالة حيث صار عوناً للنصارىٰ ضد المسلمين، كما قيل إنه دخل في الديانة النصرانية. (ابن بلقين، مذكرات الأمير عبد الله، ص ١٧٤).

أما المنذر بن يحيىٰ صاحب سرقسطة (٤٠٧ ـ ٤٣٠ هـ) فقد بالغ في موالاة النصارىٰ ولا سيما ريمنده وشانجة ملكَيْ نبرة، حيث يذكر كلٌ من ابن بسام وابن عذارىٰ أنه بلغ به الأمر في استمالة ذينك الملكين أن أجريا عقد نكاح بين شانجة ملك نيرة ورامون ملك برشلونة في حضرة المنذر وبين يديه، حَضَره حفل من أهل الملتين[1]، ويرىٰ بعض المؤرخين والكتَّاب أن هذه المبالغة من التودد والموالاة وفَّرت الهدوء والسلام لإقليم سرقسطة، وأنها كانت من قبيل الخدعة للنصارىٰ المتربصين بالمسلمين[2].

ولكن من يرصد الأحداث السياسية والحربية لتلك المنطقة يدرك أن هذا التوجيه والتعليل غير مقبول لما يأتي:

١ ـ أنه لقي معارضة قوية من لدن سكان منطقة سرقسطة حيث قرفت الألسنة منذراً لسعيه في توحيد كلمة النصارىٰ[3]، كما لقي ذلك العمل إنكاراً واضحاً من أهل تُطيلة حيث أعلنوا عصيانهم للمنذر احتجاجاً علىٰ عمله، فلما علم بذلك شانجة ملك نبرة أرسل يستدعي قوماً من أعيانهم؛ حيث حاول ثنيهم عن معارضتهم ولا سيما تصديهم للجيش النصراني ومنعه من دخول البلاد، لكن من قابله من الأعيان أخبروه بأن هذا موقف الناس علىٰ الرغم من موافقة المنذر وإذعانه لتبعيتهم، وبالرغم من هذه المحاولة فإن عامة الناس لم يتقبلوا ذلك الأمر بل نفروا منه، كما عزموا علىٰ التصدي للقوىٰ النصرانية حيث خرج أهل البلد كلهم للدفاع عن مدينتهم[4].

(١) ابن بسام، الذخيرة، ق ١، ج ١، ص ١٨٢، البيان المغرب، ج٣، ص ١٧٦ ـ ١٧٧.
(٢) من هؤلاء المؤرخين والكتاب: ابن بسام، الذخيرة، ق ١، ج ١، ص ١٨٢، ابن عذارىٰ، البيان المغرب، ج٣، ص ١٧٦ ـ ١٧٧، رجب عبد الحليم، العلاقات، ص ٣٢٧، محمد عبد الله عنان، دول الطوائف، ص ٢٦٨.
(٣) ابن بسام، الذخيرة، ق ١، ج ١، ص ١٨٢.
(٤) المصدر السابق، ق ١، ج ١، ص ١٨٤.

٢ ـ إن ما هدف إليه المنذر يمكن الوصول إليه بوسائل وطرق أقل تنازلاً، وأكثر حفظاً لكرامة المسلمين وعزتهم.

٣ ـ ما ذكره كل من ابن بسام وابن عذارىٰ حينما أيدا ذلك العمل من أن ذلك العقد قد فسد حيث ذكرا أنه «لم ينفع الله الطاغيتين بصهرهما الذي كانا عقداه بحضرة منذر إذ أعجل عنه شانجة وأثيره ريمنده وابنه بعده؛ فشتت الله شمل الطاغية»(١)، إن هذا التسويغ غير مقبول؛ لأن النتائج كانت في علم الغيب ولم يكن المنذر حينما أقر هذا العمل عارفاً بها أو مستشرفاً لكُنهها.

٤ ـ ذكر ابن بسام قوله: «ولم ينفع الله الطاغيتين بصهرهما الذي كانا عقداه للتألف علىٰ المسلمين»(٢)؛ لعل هذا النص واضح ولا يحتاج إلىٰ تعليق؛ إذ كيف يبارك عقداً لجمع كلمة النصارىٰ ضد المسلمين.

٥ ـ إن تطورات الأحداث بعد ذلك تدل علىٰ أن قبول النصارىٰ لتلك التنازلات المهينة من قبل المنذر كان قبولاً مؤقتاً ريثما تتاح الفرص، فقد أغار ملك برشلونة علىٰ بعض أطراف مملكته مما اضطره إلىٰ أن ينزل له عن بعض القلاع، والحصون(٣)، كما تدلنا أيضاً علىٰ أن المنذر لم يكن حريصاً وجاداً في سعيه لمصالح المسلمين حينما قدَّم تلك التنازلات؛ إذ لم يستغل ذلك الأمان الذي حصل لإعداد القوة وحماية الثغور بل ظل مؤثراً «لشهواته والمسارعة لقضاء لذاته، والانهماك في طلب راحته، والشغف بزي دنياه، والكلف بزخرفها

---

(١) هذه رواية ابن عذارىٰ، البيان المغرب، ج٣، ص ١٧٧، وقد أورد هذا النص مع اختلاف يسير ابن بسام، ق ١، ج ١، ص ١٨٢.
(٢) ابن بسام، الذخيرة، ق ١، ج ١، ص ١٨٢.
(٣) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ج ٢، ص ١٩٧، محمد عبد الله عنان، دول الطوائف، ص ٢٦٨.

والتهالك على حبها. . . فاتخذ الجواري الحسان وملاح الغلمان»(١).

وبعد هذا العرض فإنه بإمكاننا أن نقول: إن ما ارتآه وحسَّنه بعض المؤرخين والكتّاب للمنذر، ليس مقبولاً حيث لم يقبله من عايشه أو اكتوى بناره من الناس، ولعل تباين نصوصهم التي أوردناها تدلنا على صحة هذا الاتجاه.

وقد خَلَف بني تجيب على حكم منطقة سرقسطة بنو هود حينما استولى سليمان بن محمد بن هود (٤٣١ ـ ٤٤١ هـ) عليها سنة ٤٣١ هـ، وفي سنة ٤٣٥ هـ ثار نزاع بينه وبين جاره يحيى بن إسماعيل بن ذي النون على منطقة وادي الحجارة التي استولى عليها بنو هود؛ حيث لم يتمكن ابن ذي النون من استعادتها، حينئذ لجأ إلى النصارى حيث فاوض فرديناند الأول ملك قشتالة، وطلب العون منه نظير أن يؤدي إليه مالاً كثيراً، ويعترف له بالولاء والطاعة، فاستجاب له الملك القشتالي حيث أغار على أراضي بني هود، وحينما رأى ابن هود تحركات الملك القشتالي نحو أراضيه بادر بإظهار الولاء والطاعة له؛ حيث بعث إليه بأموال جزلة، كما طلب منه أن يُغير على أراضي بني ذي النون(٢)، فلما رأى ذلك ابن ذي النون التجأ إلى غرسية أخي فرديناند، فاستغل النصارى تلك الفرص محاولين الاستفادة منها قدر الإمكان فخرَّبوا ديار المسلمين.

ولم تتوقف موالاة بني هود عند هذا الحد، بل إنها ازدادت حينما تفاقم الخلاف بين أبناء سليمان المستعين بالله الخمسة بعد وفاته، حيث والوا النصارى واستعانوا بهم بعضهم ضد بعض، ويبدو أن التنازلات التي قدمها حكام

---

(١) ابن بسام، الذخيرة، ق ١، ج ١، ص ١٨١.
(٢) ابن عذارى، البيان المغرب، ج٣، ص ٢٨٠ ـ ٢٨١.

سرقسطة كانت كبيرة ومغرية؛ إذ تنافس عليها أبناء فرديناند بعد وفاته عام ٤٥٧ هـ[١].

وكان النصارىٰ يقبلون أي ولاء مهما كان صاحبه وكيفما كانت أهدافه، بل ربما حاولوا زرع التنافس بين أولئك الزعماء حتىٰ تكون موالاتهم قوية، وعطاؤهم كثيراً، فحينما خاطب حاكم بلنسية أبو بكر أحمد بن عبد الله بن عبد العزيز (٤٥٧ ـ ٤٧٨ هـ) الملك القشتالي ألفونسو السادس أعلن أنه انضوىٰ تحت حمايته، كما تعهد له بأداء الإتاوة السنوية مقابل حمايته من أي خطر، وقد نافسه في ذلك المؤتمن بن المقتدر بن هود (٤٧٤ ـ ٤٧٨ هـ)، حيث خاطب ألفونسو مبدياً رغبته في كسب صداقته، كما دفع إليه مائة ألف دينار مقابل تخليه عن ابن عبد العزيز ومساعدته في السيطرة علىٰ بلنسية[٢].

هكذا تسابق أولئك الزعماء من أجل كسب ود الملك النصراني الذي وجدها فرصة ثمينة، فقد توجه نحو بلنسية فخرج إليه ملكها أحمد بن عبد العزيز، حيث ترفق في مخاطبته، وأقنعه بالرجوع فانصرف ألفونسو بعد أن وعده بحمايته[٣].

ولعل من أوضح صور الموالاة والخضوع للنصارىٰ وتمكينهم من بلاد المسلمين مقابل مساعدات رمزية ووقتية يقدمونها للمسلمين هي موالاة المقتدر بالله ابن هود للقائد النصراني «ردري جو دي بيبار» المعروف

(١) انظر في تفصيلات ذلك: ابن عذارىٰ، البيان المغرب، ج٣، ص ٢٢٣، ٢٨١، ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ج ٢، ص ١٧١، السامرائي، الثغر الأعلىٰ، ص ٩.

(٢) القلقشندي، صبح الأعشىٰ، ج ٥، ص ٢٥٣، خليل السامرائي، الثغر الأعلىٰ، ص ١١٠، محمد عبد الله عنان، دول الطوائف، ص ٢٨٦.

(٣) رجب عبد الحليم، العلاقات، ص ٢٤٩.

بـ (القَمْبيطور)[١]؛ حيث كان المقتدر أول من نهج هذا النهج من زعماء الطوائف، وذلك سنة (٤٧٤ هـ/ ١٠٨٠ م)[٢].

وكان القَمْبيطور كما تُصوِّره الروايات التاريخية مغامراً لا عهد له ولا ذمة، يبيع الصديق والعدو معاً[٣]، كما يحاول انتهاز الفرص بأي ثمن، وله في هذا الميدان مواقف مشهورة تدل على ما تأصل في نفسه من تلك الصفات القبيحة، كما تُبين حقده على المسلمين، وأنه كان فضلاً عن مطامعه في المسلمين كانت تحركه ضدهم - أيضاً - روحه الصليبية الحاقدة، ومن الأدلة على ذلك - والأدلة هنا كثيرة - موقفه من حليفه المقتدر ابن هود صاحب بلنسية حينما حاصره المنذر ابن هود صاحب طرطوشة ودانية والجزء الشرقي من مملكة سرقسطة، حيث استغاث المقتدر بالمستعين ابن هود صاحب سرقسطة وخصم المنذر، فأجابه

(١) الكمبيطور أو القمبياطوار، هكذا تسمِّيه بعض المصادر الإسلامية، وهو فارس قشتالي يدعى ردري جو دي بيبار Rodri go de vivar ولد في برغش قرب حاضرة قشتالة؛ في النصف الأول من القرن الحادي عشر الميلادي، ثم دخل في خدمة ألفونسو السادس حيث أبلى بلاء حسناً في حرب المسلمين، ولكن العلاقة ساءت بينهما فأبعده ألفونسو من بلاطه فتولى قيادة مجموعة من الجنود النصارى، وأخذوا يغيرون على الأراضي الإسلامية.

وكان الكمبيطور يتمتع بروح صليبية عالية ضد المسلمين، كما كان مشهوراً بشجاعته وفروسيته، توفي سنة ١٠٩٩م (ابن بسام، الذخيرة، ق٣، ج ١، ص ٩٩، ابن الأبار، الحلة السيراء، ج ٢، ص ١٢٥ - ١٢٦، ابن الخطيب، أعمال الأعلام، القسم الثاني، ص ٢٠٤، محمد عبد الله عنان، دول الطوائف، ص ٢٨١، سعيد عبد الفتاح عاشور، أوروبا العصور الوسطى، ج ١، ص ٥٤٤).

(٢) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ج ٢، ص ٢٠٤، سعيد عبد الفتاح عاشور، أوروبا العصور الوسطى، ج ١، ص ٥٤٤، محمد عبد الله عنان، دول الطوائف، ص ٢٨١.

Memendez Pidel R. El Mumor 1000 de la colecciona auslral Espara caloe- Madrid 1973, 70 ed.

(وسوف نتحدث عما فعل الكمبيطور حين حديثنا عن النتائج في الفصل الثالث إن شاء الله تعالى).

(٣) محمد عبد الله عنان، دول الطوائف، ص ٢٣٦.

المستعين وهبَّ بجيش لنصرته، وكان يصطحب معه القَمْبيطور في ثلاثة آلاف فارس، وذلك عام (٤٨١ هـ / ١٠٨٨م)، وكان المستعين قد اتفق معه علىٰ أن تكون الغنائم كلها من نصيب القمبيطور ورجاله، بينما تكون مدينة بلنسية من نصيب المستعين، فلما اقتربوا من المدينة فك عنها المنذر الحصار، وكان القادر يعرف نيّات هؤلاء الذين جاؤوا لمساعدته وأنها لم تكن علىٰ ظاهرها؛ فحاول أن يضربهم بعضهم ببعض حيث تحالف سراً مع القَمْبيطور، حينما أرسل إليه الأموال الجزلة والهدايا الثمينة، فلما وصل إلىٰ بلنسية كل من المستعين والقمبيطور ظهرت حقيقة ذلك القائد النصراني، كما انكشف غدره؛ حيث كان يظهر للقادر والمستعين أنه مساعد لكل منهما في آن واحد، وهو في حقيقة الأمر ينوي أهدافاً أخرىٰ[١]، ولعل مما يؤكد هذا الأمر أن هذا القائد كان ينطلق وفق توجيهات الملك القشتالي؛ إذ بعث إليه يؤكد له أنه فيما يعمله ويغنمه إنما هو تابع له، وأن مَنْ معه مِنَ الجند الذين يقودهم في أراضي المسلمين دون أية نفقة من الملك القشتالي، إنما هم تحت تصرفه ينزلون ضرباتهم بالكفرة، وفي وسعهم أن يستولوا علىٰ شرقي الأندلس[٢]، كما يؤكد ذلك الأمر أن القمبيطور ذهب بعد تلك العمليات الحربية إلىٰ الملك القشتالي، وعقد معه اتفاقاً علىٰ أن يقوم القَمْبيطور بحرب المسلمين، وأن الأراضي والمدن والحصون التي ينتزعها منهم تكون ملكاً خاصاً له ولأولاده من بعده[٣].

هكذا بدت أهداف النصارىٰ واضحة ضد مسلمي الأندلس، حيث لم يشفع للمسلمين ما قدموه من ولاء وطاعة لتلك القوىٰ، بل إن تلك التنازلات أعطت

---

(١) ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس، ص ٦٨، محمد عبد الله عنان، دول الطوائف، ص ٢٣٣ ـ ٢٣٥، رجب عبد الحليم، العلاقات، ص ٢٥١.
(٢) محمد عبد الله عنان، دول الطوائف، ص ٢٣٦.
(٣) المرجع السابق، ص ٢٣٦.

النصارىٰ شعوراً بأن المسلمين وبلادهم تابعون لهم، وأن المسلمين غير قادرين علىٰ إدارة شؤون بلادهم فضلاً عن حمايتها والذود عنها.

وفي هذا الاتجاه سار عبد الملك بن هذيل بن رزين (٤٣٦ ـ ٤٩٦ هـ) حاكم شنتمرية الشرق؛ ذلك أنه حينما سقطت مدينة طليطلة بيد ألفونسو السادس ملك قشتالة سنة (٤٧٨ هـ/ ١٠٨٥م) ذهب عبد الملك إلىٰ الملك النصراني مهنئاً، كما حمل معه الأموال وهدية جزلة من الحلي والحلل والخيل وتحف الملوك، فأعجب الملك النصراني بتلك الهدية فكافأه عليها بـ (قرد)! فكان عبد الملك بن هذيل يفخر به (أي القرد) علىٰ سائر ملوك الطوائف(١)، ويبدو أن هذا التصرف منه إلىٰ جانب حبه لذاته، ومصالحه الذاتية ثم ركونه إلىٰ الملذات والشهوات هو الذي دفع ابن حيان إلىٰ أن يصفه بأنه كان «سيئة الدهر، وعار العصر، جاهلاً لا متجاهلاً، وخاملاً لا متخاملاً، قليل النباهة»(٢).

وكانت مملكة غرناطة بزعامة ملكها عبد الله بن بلقين (٤٦٥ ـ ٤٨٣ هـ) من الدول التي أعلنت في كثير من الأحيان موالاتها للنصارىٰ وخضوعها لهم، كما احتمت بهم ضد مخاطر العباديين والمرابطين، ففي سنة ٤٦٦ هـ عقد ابن بلقين حلفاً مع الملك القشتالي ألفونسو علىٰ دولته(٣)، لكن الملك النصراني لم يأبه بهذا الحلف، فقد أغار في السنة التالية علىٰ مدينة غرناطة، وذلك بتحريض من

(١) ابن عذارىٰ، البيان المغرب، ج٣، ص ٣١٠ ـ ٣١١، وقد نسب ابن عذارىٰ هذا الفعل إلىٰ ابنه يحيىٰ بن عبد الملك والذي حكم سنة ٤٩٦ هـ، ولكن يبدو أن هذا وهم منه، فالذي عايش تلك الأحداث، ومنها سقوط طليطلة سنة ٤٧٨ هـ، هو الأب الذي حكم حتىٰ سنة ٤٩٦ هـ، وليس الابن الذي خلف أباه، هذا فضلاً عما اتصف به الأب من حبه للملذات، وإذعانه للملك القشتالي.

(٢) ابن عذارىٰ، البيان المغرب، ج٣، ص ٣٠٩. (نقلاً عن ابن حيان).

(٣) ابن بلقين، مذكرات الأمير عبد الله، ص ٧٦، محمد عبد الله عنان، دول الطوائف، ص ١١٨.

ابن عباد، حينئذ رأى الأمير عبد الله بن بلقين حاكم غرناطة أن يجدد الخضوع للملك القشتالي فخرج إليه بنفسه حيث تعهد له بأن يقدم له في كل سنة عشرة آلاف مثقال من الذهب، وأن يسلم له بعض الحصون الواقعة جنوب غربي جيان وهي التي باعها الملك النصراني فيما بعد لابن عباد(١).

ولم يتوقف خضوع ابن بلقين عند هذا الحد بل إنه حرّض النصارى ضد المرابطين، حيث كان أول من أعلن العصيان ضد المرابطين، كما أرسل إلى ألفونسو أموالاً وهدايا نفيسة ثم استصرخ به ضد يوسف بن تاشفين، وقد أخذ عليه الشاعر السمساري هذا العمل المهين حيث قال(٢):

صاحبُ غرناطة سفيهٌ	وأعلم الناس بالأمور
صالح الفونش والنصارى	فانظر إلى رأيه الدبير
وشا بنيانه خلافاً	لطاعة الله والأمير
يبني على نفسه سفاهاً	كأنه دودة حرير
دعوه يبني فسوف يدري	إذا أتت قدرة القدير

وكانت دولة بني ذي النون في طليطلة من الدول التي بالغ حكامها في موالاة النصارى، فالمأمون يحيى بن إسماعيل (٤٣٥ - ٤٦٧ هـ) حينما هاجم فرديناند ملك قشتالة الأقاليم الشمالية والشرقية لمملكته سنة (٤٥٤ هـ/ ١٠٦٢م)، وعاث في نواحيها تخريباً لم يحاول المأمون التصدي له ومقاومته بل إنه جمع مقادير كبيرة من الذهب والفضة والأقمشة الفاخرة، ثم سار بنفسه إلى معسكر الملك النصراني فقدَّمها له وأعلن اعترافه بطاعته، كما تعهد له بدفع الإتاوة، فقبل منه

(١) عبد الله بن بلقين، مذكرات الأمير عبد الله، ص ٧٦، محمد عبد الله عنان، دول الطوائف، ص ٦٤٣.
(٢) ابن بلقين، مذكرات الأمير عبد الله، ص ٢٠٦-٢٠٧، ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ٦، ص ١٢٧ - ١٢٨.

فرديناند المال والعهد، ثم عاد إلىٰ بلاده[١].

وحينما أراد المأمون بن ذي النون سنة ٤٥٧ هـ انتزاع مدينة بلنسية من يد صهره عبد الملك بن عبد العزيز بن عامر استعان بالملك القشتالي؛ حيث تمكن بمؤازرة ذلك الملك من الاستيلاء علىٰ بلنسية[٢].

وكانت موالاة النصارىٰ قد تأصلت عند ملوك الطوائف حتىٰ في حالات ضعف النصارىٰ وتفرق كلمتهم، ويدل علىٰ ذلك أنه حينما توفي فرديناند ملك قشتالة سنة (٤٥٨ هـ/ ١٠٦٥م) وثارت بين أولاده الثلاثة ـ شانجة ملك قشتالة، وألفونش ملك ليون، وغرسية ملك جليقية ـ حرب أهلية انتهت بانتصار شانجة علىٰ أخويه سنة (٤٦٣ هـ/ ١٠٧١م)، حينئذ آوىٰ ملك طليطلة المأمون بن ذي النون ألفونش، كما آوىٰ ابن عباد في إشبيلية غرسية ملك جليقية.

وقد بقي ألفونش في ضيافة ابن ذي النون زهاء تسعة أشهر حتىٰ هلك أخوه شانجة عام (٤٦٤ هـ/ ١٠٧٢م)، وبعد ذلك ساعده المأمون في العودة إلىٰ بلاده كما أمده بالأموال وصحبه مع كبار رجال مملكته في موكب فخم حتىٰ وصل إلىٰ حدود بلاده حيث وعده ألفونسو بدوام الصداقة والمودة بينهما[٣]!

ويبدو أن الملك النصراني قد استفاد كثيراً من إقامته بين ظهراني المسلمين فقد تعرف علىٰ واقعهم، كما ظهرت له مواطن وثغرات الضعف عندهم، فما أن عاد إلىٰ بلاده حتىٰ بدأ يثير الفتن ويضرب المسلمين بعضهم ببعض مستغلاً حرص ابن ذي النون علىٰ موالاته وبقائه في تبعيته، ومما ساعده علىٰ ذلك أنه حينما توفي المأمون بن ذي النون سنة ٤٦٧ هـ، وخلفه حفيده يحيىٰ بن ذي النون الملقب

---

(١) محمد عبد الله عنان، دول الطوائف، ص ٣٨٣ ـ ٣٨٤، دوزي، ملوك الطوائف، ص ١٧٠.
(٢) محمد عبد الله عنان، دول الطوائف، ص ٣٨٩.
(٣) المصدر السابق، ص ٣٩٣، رجب، العلاقات، ص ٣٧٥ـ٣٧٦.

بالقادر (٤٧٨ / ٤٨٥ هـ) ، وكان ضعيفاً مستسلماً حيث وصف بأنه «ربي في أحجار النساء، . . . ونشأ بين الخصيان والغانيات فملك أمره للعبيد»[١]، وقد أدت تصرفاته[٢] المشينة إلىٰ ثورة أهل طليطلة ضده حيث نادوا بخلعه[٣].

وحينما شعر القادر بالخطر استنجد بصديقه ألفونسو السادس ليعينه علىٰ السيطرة علىٰ الوضع داخل طليطلة، ولكن موقف ألفونسو كان مخيباً لآمال القادر علىٰ الرغم مما قدمته له دولة بني ذي النون من خدمات حينما التجأ إليها، حيث يذكر ابن الكردبوس أن ألفونسو خاطبه بقوله: «إن كنت تريد الدفاع عن أنحائك وجّهْ إليّ مالاً وإلا سلمتك لأعدائك»[٤].

هكذا كشر الملك النصراني عن أنياب عدائية ضد حليفه القادر ابن ذي النون، ولم يأبه بما قدمته له تلك الدولة من أياد بيضاء حينما كان لاجئاً بها، كما لم يأبه أيضاً بما قدمه حكام تلك الدولة له من موالاة وتبعية؛ لأنه كان يهدف إلىٰ إضعاف مسلمي الأندلس اقتصادياً أينما كانوا؛ وذلك لكي يتمكن من إخضاعهم عسكرياً، كما كان يهدف إلىٰ استثمار تلك الفتنة التي ظهرت في طليطلة، وقد حدث هذا حينما جمع القادر أهل المدينة من عامة وخاصة وهدَّدهم بجعلهم هم وأبنائهم رهينة عند ألفونسو إذا لم يجمعوا له المال المطلوب، فلم يجد أهل طليطلة

(١) ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس، ص ٨٠.
(٢) من الأعمال التي أخذها أهل طليطلة علىٰ القادر قيامه باغتيال وزير جده الفقيه أبي بكر الحديدي عام ٤٦٨ هـ، فقد دبر مؤامرة لقتله داخل قصره علىٰ الرغم من معارضة كثير من الناس لهذا العمل بسبب محبتهم للوزير. (ابن بسام، الذخيرة، ق ٤، ج ١، ص ١٥١، ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ج ٢، ص ١٧٩، ابن عذارىٰ، البيان المغرب، ج ٣، ص ٢٧٧، القاضي عياض، ترتيب المدارك، ج ٢، ص ٨٢٠).
(٣) ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس، ص ٨٦.
(٤) المصدر السابق، ص ٨٢.

مناصاً من الثورة ضده سنة ٤٧٢ هـ؛ حيث حاصر الثوار قصر القادر، وكادوا يقتحمونه لولا أنه فرّ[١] من بعض الأبواب الخلفية حيث استقر بمدينة كونكة[٢].

ويذكر كل من ابن بسام[٣]، وابن الكردبوس[٤] أن القادر حينما استقر في مدينة كونكة بدأ بمراسلة ألفونسو طالباً منه المساعدة في إعادته إلىٰ طليطلة، وهكذا لم يستفد القادر من ذلك الدرس القاسي الذي اكتوىٰ بناره حينما تنكر له وخذله ألفونسو في ذلك الموقف الصعب.

وهذا الحدث له أكثر من دلالة لعلَّ من أهمها: أن القادر ابن ذي النون كان قد غرق في مستنقع التبعية للملك القشتالي لدرجة أنه أصبح لا يستوعب الدروس والعبر التي تُخلفها الأحداث، ومن تلك الدلالات أيضاً أن الملك القشتالي لم يكن يقيم أي تقدير لحلف أو معروف مع المسلمين، إنما كان هدفه ضرب المسلمين وإضعافهم واكتساح أراضيهم حتىٰ لو كان ذلك علىٰ حساب العهود والمواثيق فضلاً عن الوفاء وردِّ الجميل.

وعلىٰ أي حال فإن ألفونسو قد وجدها فرصة مواتية لإعانة القادر في استعادة طليطلة التي خرجت عن حكمه حينما دعا أهلُها المتوكلَ ابن الأفطس صاحب بطليوس ليتولىٰ أمرهم بعد فرار القادر منها.

ولم تكن نجدة ألفونسو للقادر بدافع من نخوة أو شهامة أو رغبة في نصرة

(١) بعد أن أفلت القادر من الثوار هرب بصورة مزرية؛ حيث لحقت به زوجته وابنته مشياً علىٰ الأقدام، وقد ضاقت به السبل فلجأ إلىٰ حصن وبذة لكن زعيم الحصن عامر بن لبون رفض استقباله، فسار شرقاً إلىٰ مدينة كونكة حيث استقر بها. (ابن بسام، الذخيرة، ق ٤، ج ١، ص ١٥٧-١٥٨).

(٢) المصدر السابق، ق ٤، ج ١، ص ١٥٧ - ١٥٨.

(٣) المصدر السابق، ق ٤، ج ١، ص ١٥٩.

(٤) تاريخ الأندلس، ص ٨٣.

مظلوم كما عرفنا، بل كانت ثمناً زهيداً لاتفاق مجحف بين الرجلين، فقد اتفقا على أن يعطي القادر ألفونسو مقابل تلك الإعانة جميع أموال المدينة بعد استعادتها بالإضافة إلى حصني سرية وقورية[١]؛ ليكونا رهناً بيد ألفونسو الذي شحنهما بعد استلامهما بالمقاتلة، وجعلهما منطلقاً لعملياته العسكرية القادمة[٢]، وقد تمكن القادر ابن ذي النون من دخول طليطلة سنة ٤٧٣ هـ تحت مظلة السيوف القشتالية؛ حيث أخذ بعد ذلك يجمع الأموال من الناس، وعلى الرغم من كثرة الأموال التي استحوذ عليها؛ فإنها لم تقنع الملك النصراني مما اضطر القادر إلى إضافة أمواله الخاصة إليها، ودفعها إلى ألفونسو، ولكنها مع ذلك لم تقنعه حيث أخذ منه حصن قتالش[٣] رهناً ثم عاد إلى بلاده محملاً بأموال المسلمين التي أخذها القادر منهم غصباً وظلماً[٤].

هكذا جلس القادر مرة أخرى على عرشه المضطرب، والفوضى تسود المدينة، وأهلها في عيش ضنك، يتوقعون من حاكمهم الثأر والانتقام، وكان ذلك في آخر سنة ٤٧٤ هـ[٥].

وفي يوم عيد الأضحى من ذلك العام ثار أهل طليطلة ضد القادر مرة أخرى حيث أخذوا عليه استمراره في استنزافه لأموالهم وتقديمها لألفونسو؛ إذ كان يقدم له مائة وخمسين ألف مثقال من الذهب، وخمسمائة مد من الطعام ضيافة له

(١) حصنا قورية وسرية، حصنان صغيران من الحصون القريبة لطليطلة، ابن الكردبوس، (تاريخ الأندلس، ص ٨٣ حاشية(١)).
(٢) ابن بسام، الذخيرة، ق ٤، ج ١، ص ١٢٥، ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس، ص ٨٣.
(٣) قتالش، هذا الاسم يطلق على عدة أمكنة في بلاد الأندلس، ولكن يبدو أن المقصود به هنا هو ذلك الحصن الذي يحمل هذا الاسم بين طليطلة ووادي الحجارة على الحدود القشتالية. (ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس، ص ٨٣).
(٤) ابن بسام، الذخيرة، ق ٤، ج ١، ص ١٢٥، ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس، ص ٨٣، رجب، العلاقات، ص ٣٧٨.
(٥) محمد عبد الله عنان، دول الطوائف، ص ١٠٩.

كل ليلة طوال بقائه في حصن قتالش، وفي أثناء تلك الثورة طمع بنو عباد وبنو هود في امتلاك طليطلة، حينئذ لجأ القادر إلىٰ الملك القشتالي حيث كتب إليه وتخلىٰ له عن قتالش وعما يتبعها من حصون علىٰ أن يعينه علىٰ أخذ بلنسية وأقطارها عوضاً عنها[١]، وهكذا تدهورت الأحوال في طليطلة بسبب موقف حاكمها الموالي للنصارىٰ كما سنرىٰ ـ إن شاء الله ـ في آخر هذا الكتاب.

ولعل من المناسب أن نشير هنا إلى أن سقوط طليطلة بيد ألفونسو قد كشف لنا عن بعض الحقائق المهمة في قضية الموالاة عند ملوك الطوائف:

منها: أن ملوك الطوائف كانوا موالين للملك القشتالي حيث خذلوا إخوانهم أهل طليطلة أثناء الحصار، ثم بعد سقوط المدينة، وهذا بلا شك مما جعلهم يصغرون في أعين الناس جميعاً بمن فيهم الملك النصراني.

ومن تلك الحقائق أن القادر ابن ذي النون علىٰ الرغم من فقده لطليطلة حاضرة ملكه، وعلىٰ الرغم ـ أيضاً ـ من خذلان النصارىٰ له في أكثر من موقف فإنه بقي موالياً لهم، حتىٰ بعد تلك الكارثة! وفي هذا يقول ابن بسام: «وخرج ابن ذي النون خالياً مما تمناه، شَرِقاً بعقبىٰ ما جناه، والأرض تضج من مقامه، وتستأذن في انتقامه، واستقر عند الفونش محفور الذمة، مذال الهمة، ليس دونه باب، ولا دون حرمه ستر ولا حجاب، حدثني من رآه يومئذ بتلك الحال وبيده اصطرلاب يرصد فيه أي وقت يرحل! وقد أطاف به النصارىٰ والمسلمون، أولئك يضحكون من فعله، وهؤلاء يتعجبون من جهله»[٢]. ولم يكن ابن بسام وحده هو الذي أنكر علىٰ القادر ذلك العمل، بل إن ابن الخطيب قد سخر منه

(١) انظر تفصيلات ذلك في: ابن بسام، الذخيرة، ق ٤، ج ١، ص ١٢٩ ـ ١٣٠، ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ج ٢، ص ١٨١، ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس، ص ٨٤، محمد عبد الله عنان، دول الطوائف، ص ١٠٩ ـ ١١١.

(٢) الذخيرة، ق ٤، ج ١، ص ١٣٠.

ومن عمله المشين، كما بيَّن أن ما حل به إنما هو بسبب ركونه إلىٰ النصارىٰ حيث لم يفوا بوعدهم له(١).

كان هذا عرضاً سريعاً لمواقف حكام طليطلة من الدول النصرانية المجاورة لهم، وقد تبين لنا من خلاله أن ما قام به أولئك الحكام ولا سيما القادر لم يكن موالاة وتبعية فحسب بل كان رقّاً مغلظاً، ومع هذا لم ينفعه ذلك بشيء بل قذف به في مستنقع الذل والعبودية أولاً ثم فقدان السلطة والسلطان الذي كان من أهم أهدافه وأغلىٰ غاياته.

أما بنو عباد حكام إشبيلية فقد حاولوا في بادئ الأمر مقاومة القوىٰ النصرانية، وعدم الإذعان لها، ويتمثل هذا في الجيش الذي أرسله مؤسس دولة بني عباد القاضي أبو القاسم محمد بن إسماعيل بن عباد (٤١٤ ـ ٤٣٣ هـ) بقيادة ابنه إسماعيل سنة ٤٢٥ هـ إلىٰ مملكة ليون(٢)، لكن هذه الروح ما لبثت أن ضعفت في عهد خَلَفه المعتضد (٤٣٣ ـ ٤٦٤ هـ) الذي أعلن خضوعه لملك قشتالة فرناندو الأول حينما هدد أراضيه، فتم الاتفاق بين الملكين سنة ٤٥٥ هـ علىٰ أن يقدم ابن عباد لملك قشتالة إتاوة سنوية(٣)، ولما توفي فرناندو بعد تلك المعاهدة بثلاث سنوات وخَلَفه ولده سانشو ظل المعتضد يؤدي إليه الأموال أسوة بأبيه حتىٰ وفاته.

---

(١) أعمال الأعلام، ج ٢، ص ١٨١.

(٢) ابن عذارىٰ، البيان المغرب، ج٣، ص ٢٠٣، دوزي، ملوك الطوائف، ص ٢٩.

(٣) محمد عبد الله عنان، دول الطوائف، ص ٤٨.

وبالإضافة إلىٰ ما ذكر أعلاه، فقد تم الاتفاق أيضاً علىٰ أن يسلم المعتضد جثمان القديسة خوستا شهيدة إشبيلية ـ كما يقولون ـ، فوعده بتحقيق ذلك، ثم جاء مندوب من قبل فرناندو وتسلم ذلك الجثمان. (محمد عبد الله عنان، دول الطوائف، ص ٤٨، رجب عبد الحليم، العلاقات، ص ٣٨٤).

وحينما نشأ الخلاف داخل البيت القشتالي الحاكم ـ بعد وفاة فرديناند سنة (٤٥٨ هـ / ١٠٦٥م) وتنازع أبنائه على السلطة[١] ـ لم يحاول المعتضد ابن عباد الاستفادة من تلك الفرصة ونبذ طاعة النصارى، والسعي لأخذ الثأر منهم بل إنه آوى غرسية ملك جليقية الذي هرب حينما اختلف مع أخيه شانجة ملك قشتالة، وهذا بلا شك يعد مؤشراً قوياً على تأصيل الموالاة والتبعية للنصارى عند المعتضد.

وحينما خَلَفَ المعتمد ابن عباد (٤٦٤ ـ ٤٨٤ هـ) أباه المعتضد في حكم إشبيلية سار على خطاه في التعامل مع القوى النصرانية؛ وخصوصاً بعدما توحدت ممالك ليون وقشتالة، وجليقية، تحت سلطة ألفونسو السادس الذي اتبع سياسة أبيه فرديناند في استغلال الخلافات الواقعة بين المسلمين وجني ثمارها، مع السعي لإبقاء نار الفتنة مشتعلة كي يدوم لهم ولاء المسلمين وتبعيتهم، وكذلك مواصلة الحملات العسكرية حينما يرون الوقت المناسب، ففي سنة ٤٦٧ هـ قام ألفونسو بحملة ضد إشبيلية للمطالبة بتقديم المزيد من الأموال والخضوع لسلطانه، قد سعى وزير المعتمد ابن عباد لتوجيه تلك الحملة لغرناطة حيث عقد مع الملك النصراني حلفاً ينصّ على أن يتوجه الجيش إلى غرناطة، وفي حالة سقوطها تكون أموالها للنصارى، والمدينة لابن عباد، ولكن حاكم غرناطة عبد الله بن بلقين حينما علم بهذا الاتفاق حاول التصدي له بالتقرب إلى ألفونسو حيث اتفق معه على دفع الإتاوة السنوية، كما حذّر ابن بلقين ألفونسو من أن توسع حكم بني عباد ليس في صالح النصارى؛ حينئذ قَبِلَ ألفونسو ولاء الغرناطيين فكفّ عن حربهم[٢].

---

(١) محمد عبد الله عنان، دول الطوائف، ص ٤٨.
(٢) عبد الله بن بلقين، مذكرات الأمير عبد الله، ص ٧٣ ـ ٧٥.

وكان طموح العباديين ورغبتهم في توسيع رقعة دولتهم إلىٰ جانب عدم اكتراثهم بمصالح المسلمين من العوامل القوية التي جعلتهم يرتمون في أحضان النصارىٰ ضد إخوانهم المسلمين طمعاً في معونتهم؛ فإن لم تكن . . فرضاهم وسكوتهم، ومما يدل علىٰ ذلك أنهم حينما أخفقوا في إخضاع غرناطة توجهوا نحو مرسية التي كان يحكمها أبو عبد الرحمن ابن طاهر (٤٥٥ ـ ٤٧١ هـ) حيث فاوضوا ملك برشلونة الكونت ريمون بيربخير الثاني، وقد تم الاتفاق علىٰ أن يدفع له المعتمد عشرة آلاف مثقال من الذهب نظير معاونته علىٰ الاستيلاء علىٰ مرسية، وأن يقدم كل واحد من الطرفين رهينة لضمان التنفيذ، ولكن هذا المشروع لم ينجح كسابقه؛ حيث لم يتمكن العباديون من دخولها إلا في سنة ٤٧١ هـ بعد أن ساءت العلاقة بين الدولتين[١]، ومما يدل علىٰ طموحات العباديين أن ألفونسو أبقىٰ فرقة من جيشه مع جيش غرناطة لكي يوجد قدراً من التوازن بينه وبين جيش العباديين الذين كانوا يطمعون دائماً في توسيع رقعة دولتهم علىٰ حساب جيرانهم ملوك الطوائف ولا سيما الغرناطيين[٢].

ومما لا شك فيه أن تلك التبعية الواضحة التي أبداها العباديون للنصارىٰ هي التي قلَّلت من هيبتهم؛ مما جرأ عليهم موظفي النصارىٰ فضلاً عن قادتهم وملوكهم، ولعل ازدراء الوزير اليهودي ابن شاليب وتهديده للمعتمد ابن عباد من الأدلة القوية علىٰ هذا الأمر ـ كما سنرىٰ إن شاء الله ـ[٣].

ويبدو أن الأنانية وحب الذات إلىٰ جانب الحرص علىٰ التوسع في السيطرة والعمل من أجل البقاء في السلطة قد أصلت في نفس المعتمد ابن عباد موالاته

(١) ابن الأبار، الحلة السيراء، ج ٢، ص ١٤٥ ـ ١٤٦، دوزي، ملوك الطوائف، ص ١٠ ـ ٣١.
(٢) رجب عبد الحليم، العلاقات، ص ٣٨٨.
(٣) انظر تفصيلات ذلك في الفصل الثالث من هذا البحث.

للنصارىٰ وتبعيته لهم، بل وشعوره بأن هذه الأعمال هي القنوات والجسور المؤدية إلىٰ تلك الطموحات، وهذا ما جعله يقدم علىٰ كثير من الأعمال التي يناقض بعضها بعضاً، فقد ذكر المؤرخون أنه كان صاحب الفضل في قدوم المرابطين إلىٰ الأندلس؛ حينما استنجد بهم، وبيَّن لهم ضرورة دخولهم الجزيرة الأندلسية من أجل الوقوف في وجه الخطر النصراني، لكنه ما لبث أن تغير موقفه حيث عاد إلىٰ موالاة النصارىٰ ضد المسلمين(١).

وقد بقي هذا الولاء حتىٰ بعد دخول المرابطين الأندلس؛ إذ حاول أمراء كلٍّ من غرناطة، وإشبيلية، وبطليوس، وغيرهم الارتماء في أحضان النصارىٰ، وتقديم مزيد من التنازلات لهم، حيث أعطوهم عدداً من الحصون مقابل حمايتهم من أيِّ خطر يحيط بهم، لكن هذا الأمر لم يُفدهم شيئاً؛ فقد تمكن المرابطون في النهاية من القضاء عليهم جميعاً(٢).

وبعد هذا العرض لمواقف ملوك الطوائف من القوىٰ النصرانية في شبه الجزيرة الأيبيرية؛ فإنه بوسعنا أن نقول إن تلك المواقف كانت نابعة من شعور معيّن عند أولئك القوم، ويتمثل هذا الشعور بالقناعة التامة بأن القوىٰ النصرانية هي القادرة وحدها علىٰ تثبيت أقدامهم في السلطة أو القضاء عليهم عند الاقتضاء، ونتيجة لهذه القناعة المتمخضة عن ذلك الشعور جاءت تصرفاتهم ومعاملاتهم مع تلك القوىٰ منسجمة مع الوسائل والأساليب التي كانوا يرون أنها تحقق تلك المصلحة لهم.

---

(١) سوف نفصل القول في هذه الفقرة في الفصل التالي إن شاء الله.

(٢) ابن عذارىٰ، البيان المغرب، ج٣، ص ٣٠٥، ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس، ص ٩٨، ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ج ٢، ص ١٣٢، محمد عبد الله عنان، دول الطوائف، ٢٨٧ - ٢٨٨.

وقد وصف هذه القناعة ابن بسام حين حديثه عن إسماعيل بن ذي النون حيث قال: «ولقد أساء من جاء بعده - يعني إسماعيل - ذهاباً في الكِبْر، وتهاوناً بالأمر، وقعوداً عن النصر، واستظهاراً بأحزاب الكفر، سلْمهُ باطلٌ وبطالةٌ، وحَرْبه غواية وجهالة، في المشركين نجومه وديمه، ولهم مواثيقه وذممه، وفي المسلمين همومه وهميمه، وعندهم بوائقهُ ونقمهُ»(١).

ومما لا شك فيه أن من أولىٰ تلك الوسائل هي إعلان التبعية والولاء الظاهر لتلك القوىٰ مهما كلّف هذا الأمر من تبعيات أدبية أو مادية، وهذا بلا ريب كان هدفاً أسمىٰ وغاية نبيلة لدىٰ النصارىٰ المتربصين، فقد شعروا بأنهم قد تمكنوا من تطويع أولئك القوم، وإرغامهم علىٰ الإذعان لهم؛ ولهذا قال الحاكم النصراني لطليطلة - بعد سقوطها بيد ألفونسو -: «إنه لن يجد عمّالاً أطوع من ملوك الطوائف»(٢).

ومما يجدر ذكره هنا أن تلك الموالاة لم تكن خاصة بملوك الطوائف، بل تجاوزتهم إلىٰ بعض العامة وضعاف النفوس من الموظفين والفقهاء، فالناس علىٰ دين ملوكهم(٣)، وقد صور الشاعر ابن عبد الجبار(٤) ذلك بقوله:

فَهُم أحمى لحوزتنا وأولى ... بنا وهم الموالي والعشيرُ
لقد ذهب اليقين فلا يقين ... وغرّ القوم بالله الغرورُ
رضوا بالرق يا لله! ماذا ... رآه وما أشار به مُشيرُ

---

(١) ابن بسام، الذخيرة، ق ٤، ج ١، ص ١٤٥.
(٢) المصدر السابق، ق ٤، ج ١، ص ١٣٢، رجب عبد الحليم، العلاقات، ص ٣٨١.
(٣) رجب عبد الحليم، العلاقات، ص ٣٨١، (وسوف نفصل القول في هذه القضية في الفصل التالي إن شاء الله تعالىٰ).
(٤) أبو طالب ابن عبد الجبار يعد من شعراء عصر ملوك الطوائف وأدبائهم، لكنه لم يكن ملتزماً بأخلاق الإسلام وآدابه كما ذكر ذلك ابن بسام. (ابن بسام، الذخيرة، ق ١، ج ٢، ٩١٦-٩١٧).

مضى الإسلام فابكِ دماً عليه ... فما ينفي الجوى الدمعُ الغزيرُ
ولا تجنح إلى سلم وحارب ... عسى أن يُجبر العظمُ الكسيرُ(١)

وقد يكون من المناسب أن نذكر في نهاية هذا الموضوع ما ذكره ابن حيان من أن تلك الموالاة قد تأصلت عند أولئك القوم حيث قال: «وكانت طوائف الروم ـ مدة ملوك الطوائف بأفقنا ـ قد كَلِبَ داؤهم بكل إقليم؛ فلاطفوهم بالاحتيال، واستنزلوهم بالأموال، فلم يزل دأبهم الإذعان والانقياد، ودأب النصارى التسلط والعناد، حتى استصفوا الطريف والتلاد، وأتى على الظاهر والباطن النفاد»(٢).

وقد تمخض عن تلك التبعية والموالاة للنصارى كَسْر كل الحواجز التي كانت تفصل بين المسلمين والنصارى؛ ولهذا أخذ المسلمون يتشبهون بهم في زيهم وأسحلتهم(٣)، كما أن بعض مسلمي الأندلس أخذ يقلد النصارى في الاحتفال بأعيادهم ومناسباتهم الدينية(٤)، وهكذا أصبحت مخالطة النصارى والتأسي بهم أمراً مألوفاً عند كثير من أفراد المجتمع الإسلامي هناك، وهذا ـ بلا شك ـ مما أذل الرئيس والمرؤوس، كما أزال من النفوس الأنفة الإسلامية(٥).

خامساً: حياة الترف والخلاعة والمجون:

كان من مظاهر الضعف المعنوي عند مسلمي الأندلس في عصر ملوك الطوائف انتشار كثير من الانحرافات الخُلُقية بينهم، كحياة الترف، وكالمجون، والخلاعة، وشرب الخمر، والاستغراق في الملذات الجسدية، والإكثار من

(١) المقري، نفح الطيب، ج ٤، ص ٤٨٥.
(٢) ابن بسام، الذخيرة، ق ٢، ج ١، ص ٢٤٨.
(٣) ابن الخطيب، الإحاطة، ج ١، ص ١٣٦، اللمحة البدرية، ص ٣٩.
(٤) ابن عذارى، البيان المغرب، ج٣، ص ١٧٦.
(٥) ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس، ص ٧٧.